اللفظ والمعنى بين النقاد

د. علي اللافي جولق*

المقدمة

لقد اهتم النقد العربي اهتماماً كبيراً بقضية اللفظ والمعنى فمنهم من استحسن اللفظ واعتبره أعظم قيمة من المعنى ومنهم من نظر إلى مقومات العمل الأدبي فأرجعه إلي المعنى وتناسى شأن اللفظ وآخرون ساووا بين الألفاظ والمعاني، وطائفة أخرى نظروا إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معانيها في نظم الكلام.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع في الدراسات الأدبية تَم اختيار هذا البحث ليكون دراسة أولية لموضوع ذي أهمية في الأدب العربي، فقد قسمت هذا البحث إلى ثلاثة مباحث، فكان في المبحث الأول: اللفظ والمعنى لغة واصطلاحاً، وتناول المبحث الثاني: قضية اللفظ والمعنى عند النقاد القدامى. وخصص المبحث الثالث لدراسة أراء النقاد المحدثين، وذيل البحث بالخاتمة التي لخصت فيها ما توصلت إليه في هذا البحث، وأخيراً قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول: اللفظ والمعنى لغة واصطلاحاً

اللفظ لغة: لفظ بالشيء يلفظ: تكلم، وفي التنزيل العزيز: "ما يلفظ من قول إلا لدية رقيب عتيد "(ق، 18)).

ولفظت بالكلام، وتلفظتُ به أي: تكلمتُ به واللفظ واحد الألفاظ، وهو في الأصل مصدر (ابن منظور، 40، 53)).

وجاء في معجم مختار القاموس أن كلمة "لفظ " على مثال

ضرب و"سمع فالشيء ملفوظ ولفيظ، ولفظ " نطق (الزاوي، 1984، 555).

اللفظ اصطلاحاً

"نظم" يعني لفظ يدخل في مفاضلة مع المعنى باعتبار أنَ المعاني لا يقع فيها تزايد، وأن الفضيلة والمَزية في كيفية ضمَ الألفاظ بعضها إلى بعض حتى يتأتى الانتقال من المعنى إلى معنى آخر، وبعبارة أخرى اللفظ كنظام وخطاب يؤسَس نظام العقل. (الجابري، 30)

هذا بالإضافة إلى مراعاة "لكل مقام مقال" الذي يقضي باختيار اللفظ المناسب للمعنى المتناسق مع السياق.

---

* كلية التربية، العجيلات.

ويرى معظم العلماء أن أداة الدلالة هي اللفظ أو الكلمة، وتكاد تجمع المعاجم العربية على أن "الألفاظ" ترادف الكلمات في الاستعمال الشائع المألوف، وأن النحاة يحاولون التفرقة بين كل من اللفظ والكلمة، ومنهم من يرى أن الكلمة أخصُ لأنها لفظ دل على معنى، وكذلك الألفاظ اصطنعها الإنسان للتعبير عما يخطر في ذهنه، غير أنها اكتسبت مع الزمن صفة ليست في غيرها من الرموز الاصطلاحية، ومن المجازفة أن ينظر إلى تلك الألفاظ الآن على أنها مجرد رموز، فقد ارتبطت بالفكر الإنساني ارتباطاً وثيقاً، وأصبح من الصعب أن نتصور أي نوع من التفكير بغير هذه الألفاظ. (أنيس، 1980)

المعنى لغة: روى الأزهري عن أحمد بن يحي قال: "المعنى والتفسير والتأويل واحد". وعنيت بالقول كذا: أردت، ومعنى كل كلام مقصده. (ابن منظور، 31-47)

إن معاني الكلام عديدة جداً منها المعاني المشتركة، والمختصة، والمتداولة، والمعنى المدلول هو: ترجمة ظواهر خارجية من أحداث أو أشخاص أو أشياء أو رموز لها "كالكلمات أو الصور مثلاً" إلى مدركات ذهنية متعارف عليها، وقد اختلف الفلاسفة في تحديد المقصود بالمعنى، وامتد الخلاف إلى ميدان النقد الأدبي.

إن مجال التقارب بين الآداب عند مدرسة المعاني هو في المعاني والأفكار، وإنه من السهل أن الأديب يتخير الألفاظ المناسبة للمعني الذي يتردد في خاطره (وهب، 374).

المعنى اصطلاحاً: إن المعاني هي الصورة الحاصلة في الأذهان من الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق ما أدرك منه، فإذا عبَر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في إفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ. (القرطاجني، 18))

أما بالنسبة لوضوح المعاني وبيانها وغموضها واستغلاقها فإنه يرجع إلى الوجوه التي بها يكون بيان المعنى أو إبهامه من جهة وما يرجع إليه في نفسه، ومن جهة نسبة اللفظ الدَال عليه إلى فهم المخاطب، ومن وجوه الغموض في المعاني منها ما يرجع إلى المعاني أنفسها، ومنها ما يرجع إلى المعاني والألفاظ معاً فأما ما يرجع إلى المعاني أنفسها فمن ذلك أنَ المعنى الدقيق يكون الغور فيه بعيداً كأن يكون مضمنا معنى علمياً أو خبراً تاريخياً أو محالاً به على ذلك أو مشاراً به إليه، فيكون فهم المعنى متوقفاً على العلم بذلك المضمن العلمي أو الخبري. (الجابري، 50)

المبحث الثاني: اللفظ والمعنى بين النقاد

1- الجاحظ : 155 – 255 هـ .

إن الجاحظ أول ناقد عربي أثار قضية اللفظ والمعنى، واعتنق مذهب الصياغة، وبراعة التصوير، والتفنن في اختيار الألفاظ الموحية المؤثرة لأنها ميدان التسابق بين الأدباء والشعراء، أما المعاني فلا تفاضل فيها بين الأدباء والشعراء في نظر الجاحظ.

منهج الجاحظ في قضية اللفظ والمعنى:

لعل كان أول من تفطن إليها في تاريخ الفكر النقدي والأدبي عند العرب ثم أخذها عنه دارسو الأدب وناقدوه، حيث وضع في تعريفه للفظ كل ما يمكن أن يقال عنه في عصره أو بعد عصره، ثم تبعه الناس على ذلك فما هو إذن مذهب الجاحظ في اللفظ ؟ ومن النصوص المروية عن الجاحظ نعرف أنه له عناية خاصة باللفظ، فهو ميال إلى استحسان الألفاظ معني بصياغتها، وجعل البلاغة فيها باعتبار النظم والصياغة فمن ذلك قالوا: في هذا الباب، وقد انتقد بيتين من الشعر استحسنها أبوعمر والشيباني حتى أمر بكتابتها له.والبيتان:

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا أفضع من ذاك لذاك السؤال.(الذئب، 2000)

قال الجاحظ: وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج، وجنس من التصوير. (هارون، 131، 132))

وقوله: والعامة بما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً، وتدع ما هو أظهر وأكثر ومن عنايته بالألفاظ.

قوله: وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ساقطاً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً وألا يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشي في الكلام يفهمه الوحشي من الناس وكلام الناس في طبقات.

واعتبر الجاحظ أجود الأساليب وفصاحتها ما خلت من الألفاظ الكثيرة، والألفاظ الوحشية، ولذلك فقد نوه بأساليب الكتاب، ورآها من أرقى وأنقى الأساليب. فقال أما أنا فلم أر قوماً قط أنبل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً.

قال أبوعثمان: وأنا أقول أن ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنق ولا ألذ في الأسماع، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء، والجاحظ يؤمن بأن لكل صناعة ألفاظاً تشاكلها مقصورة في الاستعمال عليها كما دعا إلى اختيار الألفاظ المناسبة للمعاني المناسبة، قال إلا أني ازعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ومن دواعي ميله إلى تفضيل اللفظ، وتقديمه على المعنى أن اللفظ يبقى دالاً على صاحبه ومرتبطاً به بخلاف المعنى الذي يمكن أن تتداولة الأقلام وتتحاوره الألسن فيأخذ الشعراء بعضهما معاني بعض من غير أن يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه.

وفي هذا المجال من اهتمامه بالصناعة اللفظية حديثه عن الألفاظ وكيفية استعمال بعض الناس لها، وعن الألفاظ المتلازمة في القرآن، وعن أكثر الحروف دوراناً، وعن كون الألفاظ محدودة، وعن أصناف الدلالات – وعن علاقة اللفظ بالإشارة – وعن كون الصوت آلة اللفظ كما تحدث عن عيب استعمال بعض الألفاظ في غير موضعها وعن استحسان بعض ألفاظ المتكلمين في الشعر– وعن وجوب حكاية لفظ البدوي مع إعرابه ومخارجه – ووجوب حكاية نوادر العوام بألفاظها وصورتها، وعن طريق تخير البياني إلى غير ذلك من قضايا اللفظ والصياغة الفنية التي بحثها بحثاً موضوعياً استقصائياً على أسس بيانية ونقدية وأدبية.

وفي سبيل الألفاظ والهيام بأساليب الصياغة تحدث الجاحظ عن مزايا البديع في العرب فقال: والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان.

كما ذكر السجع والازدواج في مواضع عدة من "البيان والتبين" وأفاض في سرد كثير من النصوص المزدوجة والمسجوعة المأثورة عن بعض البلغاء، وأثار بعض قضايا البلاغة كالإيجاز، والإطناب والاستعارة، والتشبيه وغيرها.

هذا هو مذهب الصياغة والصناعة الفنية، وقد كان الجاحظ أول من رفع لواءه ودعا إليه في النقد العربي، وذلك حين رفع صوته. بقوله: الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير. إن فنية الصناعة التي هي جودة الشعر وسر جماله عند الجاحظ تكمن في تخير اللفظ وإحكام الصنعة، وقد يفقدها إذا ترجم.

قال الجاحظ: فضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل ومتى حول تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه،

وسقط موضوع التعجب فيه، وصار كالكلام المنثور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأدفع من المنثور الذي حول عن موزون الشعر.(الذئب، 2000)

وإذا قلنا أن الجاحظ شديد الميل إلى الصناعة اللفظية أو الصورة أو الشكل، وهو يعطيها كل اهتمامه وعنايته، فإن السؤال الذي يطرح علينا نفسه هو: ما الدافع الذي يمكن وراء هذا الاتجاه الذي يتجهه الجاحظ؟ حتى أن يجعل المنتفع لأقواله واتجاهاته يشك شكاً قوياً في أن الجاحظ كان يعطي هذا القدر من الاهتمام للمعنى أو المضمون، بل ربما اعتقد أن لا يعبره شيئاً من ذلك كله؟ مما جعل بعض النقاد يهاجم الجاحظ في مذهبه هذا. فقال: فإن هذا من الشطط الذي لم يعده إليه إلا تعلقه بمذهب الصنعة، هذا التعلق الذي أعماه عن تقدير المعنى.

والجواب عن هذا السؤال في رأينا يتمثل في أن الجاحظ معتزلي بل هو أحد زعماء مذهب الاعتزال الذين عبروا له الطريق إلى البيان، وإصلاح المنطق للدفاع عن هذا المذهب، وأنه أديب كاتب، وفن العبارة مطلوب في مذهب البيانين والمتكلمين، وكذلك الكتَّاب تستهويهم الصنعة، وتخلبهم الصورة اللفظية على أن للصناعة أثرها البعيد في ذيوع الأدب وخلوده وتنقله بين العشائر والأجيال، وهي أيضاً ميدان التفاوت والسبب الذي تقوم على أساسه المفاضلة بين الشعراء والأدباء.

وواضح مما تقدم أن مذهب الصنعة الذي اعتنقه الجاحظ وحث عليه ونادى به قد وجد تجاوباً على مدى واسع عند أدباء العرب والفرنجة على السواء، فمن أدباء العرب أبوهلال العسكري، وابن رشيق، وضياء الدين بن الأثير، فالعسكري يقول: بحسن التأليف وجودة التركيب وكمال الحلية. وابن رشيق يختار جودة الألفاظ وحسن السبك، وصحة التأليف ومن أدباء الغرب الذين دافعوا عن الصنعة دفاع الحاجز عنها "فواتير" ومن كلامه: إنِ الأشياء تؤثر فنياً في الأغلب من نواحي أساليبها. ومنهم "فاكه" ومن كلامه إنَ الذي يخلد الكاتب إنما هو جمال الأسلوب. ومنهم " فرانس" ومما سبق ذكره نستوحي هذا السؤال:

ما هي نظرة الجاحظ إلى المعنى بعد كل ما تقدم من أرائه في اللفظ والصياغة؟

وبعد قوله أيضاً في المعنى: "والمعاني مطروحة في الطريق.." وما مراده من المعاني هنا؟

اختلفت مواقف النقاد في تفسير منهج الجاحظ في المعنى، ففريق يذهب إلى أن الجاحظ يقدر المعنى بنفس القيمة التي يقدر بها اللفظ.

قال عبد الرحمن عثمان: ولا أظن أحد يتوهم أن شيخ البيان الجاحظ يسقط المعاني ولا يعتد بنباهتها في أحكامه النقدية.

وقال شفيق جبري: "ذهب الجاحظ إلى استحسان الألفاظ ولم يذهب إلى استقباح المعاني.." وقال الجاحظ "مولع في الفن ولا يقعن في خلد أن ولعه بالفن يقضي به إلى تحقير المعاني فإنه يعظم المعاني ويعطيها قسطها".

إذن الجاحظ كان يهتم بالمعنى مثل اهتمامه بالصياغة والفن على السواء، هذا كما يراه من أسلفنا ذكرهم.

ومع ذلك كله فهناك اعتراض لا يزال قائماً في ظنَي يتحدى مذهب أنصار المعاني في مذهب الجاحظ النقدي وهذا الاعتراض يمكن في نص عبارة الجاحظ وهي: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي" فكيف نوفق بين ما ذهبوا إليه من أنه معني بالمعاني غير متهاون في قدرها، وبين هذا النص الصريح في أن الجاحظ لا يهتم بالمعاني ولا يبالي بها؟

وفي رأي أن المعاني التي يقصدها الجاحظ في نظرية المعاني إنما هي المعاني الأولية التي يدل عليها ظاهر الألفاظ، ولا تنفك تلك الألفاظ عنها، وهي المعاني التي جعلها عبد القاهر فيما بعد بمنزلة الروح من الجسد أو بمنزلة المادة من الصورة لشدة تلازمها وارتباطها وأطلق عليها اسم "المعاني الأولى".

حيث قسم المعاني إلى: معنى أول، ومعنى ثان أو معنى المعنى، ولم يكن يقصد المعنى الثاني لاستنتاج الفكر والقرائن وهو المعنى المجازي ونظرية المعاني المطروحة التي بدأ تاريخها في النقد العربي على يد الجاحظ هي نفسها التي عرضها عبد القاهر الجرجاني في قوله: كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غافلاً ساذجاً عامياً موجوداً في كلام الناس ثم تراه نفسه، وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وأحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق حتى يغرب في الصنعة، ويدق في العمل ويبدع في الصياغة.

وهكذا تتفق الآراء وتلتقي وجهات نظر النقاد والأدباء على أن أبا عثمان الجاحظ مولع باللفظ مهتم بالصنعة والصياغة ولكنها تختلف في نظرته إلى المعنى.

وإذا كان سبيل الكلام الأدبي سبيل التصوير والصياغة، فإن قدامه بن جعفر يتلاقى مع الجاحظ في نفس الفكرة، وهي أن المعاني مادة الشعر، والشعر فيها كالصورة ونحن نعد الجاحظ على رأس القائلين بقصر الحسن على اللفظ دون المعنى.

وهو يصرح بأن شأن الكلام شأن التصوير والصياغة، مما يدل أنه لم يرد الألفاظ مفردة عن تركيبها في التراكيب المتكلفة، أو الخالية من المعاني، نعم قد اشترط في التراكيب خلوها من التنافر، وهو وجه حسن لفظي محض.

وقال إحسان عباس: أن الجاحظ إنما اتجه إلى تفضيل الشكل، والاهتمام بالصنعة دون المعنى مع إنْ لم يكن من الشكليين عند التطبيق.

وهكذا تتفق الآراء وتلتقي وجهات نظر النقاد والأدباء على أن أبا عثمان الجاحظ مولع باللفظ مهتم بالصنعة والصياغة ولكنها تختلف في نظرته إلى المعنى.

وإذا كان سبيل الكلام الأدبي سبيل التصوير والصياغة، فإن قدامه يتلاقى مع الجاحظ في نفس الفكرة، وهي أن المعاني مادة الشعر، والشعر فيها كالصورة، ونحن نعد الجاحظ على رأس القائلين بقصر الحسن على اللفظ دون المعنى وهو يصرح بأن شأن الكلام شأن التصوير والصياغة مما يدل أنه لم يرد الألفاظ مفردة عن تراكيبها، ولا التراكيب المتكلفة، أو الخالية من المعاني.

نعم قد اشترط في التراكيب خلوها من التنافر، وهو وجه حسن لفظي محض.

والجاحظ يشيد بقيمة المعنى في غير موضع مما يدل على أنه لم يعن باللفظ إلا لجلاء الصورة الأدبية، ولهذه الصورة أوثق رباط بالمعنى ومن ذلك ما يراه من أن الألفاظ لا توصف بالقبح، والخسة على وجه الإطلاق، إذ لابد من مشاكلتها للمعنى، وقد يكون اللفظ الخسيس أنسب لمعناه، فلا يسد غيره مسده، ولكل ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكتابة في موضع الكتابة، والاسترسال في موضع الاسترسال.(هارون، 29)

وقد وجد من المواقف ما يحس فيه اللفظ الوحشي والسوقي، وكلام: الجزل، والسخيف، والمليح، والحسن، والقبيح، والسجع، والخفيف، والثقيل.

وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا، وتعايبوا وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني، وقد تحتاج إلى السخيف في بعض المواقع، وربما أمتع أكثر إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ، والشريف الكريم من المعاني.(هارون، 29)

فمرد الأمر في استعمال الألفاظ، وسبك الأسلوب إلى المعنى والموقف، ومرد الحكم في ذلك إلى الذوق الذي صقلته التجارب الأدبية، والمران حتى صار ذوقاً فنياً، يستحق به صاحبه أن

يكون ناقداً، وملاك الأمر فيه صحة الطبع، وهو ما تستجير به النفوس المهذبة، وتستشهد عليه الأذهان المثقفة.

وقد فهم النقاد جميعاً أن الجاحظ يشيد بالصياغة، والتأنق في اختيار الألفاظ الموحية المؤثرة، ويهمل جانب المعنى، وأنه من أنصار الألفاظ والموسيقى.

والحق أنه أراد أن يبرز ما للقيم التعبيرية من أهمية في إظهار المعنى الذي سيظل مخفياً مستوراً في الصدر حتى يحييه اللفظ، ويبرزه، فأكد على الصياغة وأهميتها في بناء الصورة الأدبية، وإنَ اللفظ والمعنى معاً هما ركنا الأدب في نظر الجاحظ.

أما ما يفهم في عبارته السابقة من تهوينه للمعاني، فالمراد بها الأغراض العامة المشاعة بين الناس، والذي يؤكد عنايته باللفظ والمعنى معاً قوله: في كتاب "البيان والتبين": إذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بلاغياً، وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه، منزها عن الاختلال، مصوناً من التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة.

إن الجاحظ كان رجلاً خصب القريحة لا يعينه الموضوع ولا يثقل عليه المحتوى أيا كان لونه، ولذا فإنه كان يحس أن المعنى موجود في كل مكان، وما على الأديب إلا أن يتناوله، ويصوغه صياغة منفردة. ولم يكن الجاحظ يتصور أن نظريته التي لم تكن تمثل خطراً عليه، ستصبح في أيدي رجال البيان خطراً على المقاييس البلاغية، لأنها ستجعل العناية بالشكل شغلهم الشاغل، وحسبنا أن نقرأ للعسكري الذي ورث هذه النظرية الجاحظية. يقول: ومن الدليل في مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب، والأشعار الرائعة ما عُملت لإفهامها المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام .(العسكري، 1952، 58-59)

ويدل ذلك على حسن الكلام وإحكام صنعته، وبديع رونقه، وجودة ألفاظه، وحسن مقاطعة، والبديع في المبدأ والغريب في المبنى، على فضل قائله، وفهم منشئه وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني، وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة، وهم يبالغون في تجويدها ويبالغون في تربيتها، كل ذلك يدل على براعتهم وحذقهم بصناعتهم، ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك، فربحوا كداً كثيراً وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً. (عباس، 99)

2- ابن قتيبة (213 – 276)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه (213- 276).

كانت فكرة التسوية أبعد تسلطاً على مفهومات ابن قتيبه مما هي لدى الجاحظ. فالناقدان يشتركان في المذهب التوفيقي الذي يريد أن يجعل الجودة مقياساً للشعر دون اعتبار للقدم والحداثة، وفي هذا الصدد.

يقول ابن قتيبة: (ولو نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلاً حظه ووفرت عليه حقه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف، لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ولم يقصر الله العلم والشعر، والبلاغة على زمن دون زمن، ولاخصَ به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه، كما أنَ الرَدى، إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه. (عباس، 95) أقول: يتفق الناقدان: ابن قتيبة، والجاحظ في هذا الموقف، وابن قتيبة أبين في التعبير عنه وأكثر إسهاباً، ثم يفترقان في مواقف أخرى، لأنَ الاعتدال عند ابن قتيبة قد بسط ظله على نظرية عامة، ومن أبين الفروق بينهما، اختلافهما في النظر إلى مشكلة اللفظ والمعنى.

فبينما انحاز الجاحظ إلى جانب اللفظ، ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية ولهذه القضية ركنان هما (اللفظ والمعنى) ومميزان هما: (الجودة ، والرداءة).

ولا بأس أن يتجه ابن قتيبة في هذا نحو المنطق فيجد أن الشعر في رأيه أربعة أضرب، لا تسمح العلاقة المنطقية في نظره أكثر منها:

1- لفظ جيد ومعنى جيد.

2- لفظ جيد ومعنى رديء.

3- لفظ رديء ومعنى جيد.

4- لفظ رديء ومعنى رديء. (عباس، 96)

وقد استعملنا هنا لفظي (الجودة – والرداءة) وإن كان ابن قتيبة لم يستعملها، وإنما استعمل أحياناً (ضرب حسن لفظه فإذا أنت دققت فيه لم تجد هناك فائدة في المعنى).

(أو ضرب منه جاء معناه وقصرت ألفاظه)، ولم يستعمل لفظين حاسمين في دلالتهما، وإنما فعل ذلك ليكون أبعد عن الحدَة التي قد تستشف من قولنا (جيد، ورديء).

واستعمال هذين اللفظين لكي لا تضطرب عليه القسمة المنطقية فالمسألة إذن صلة بين المعنى واللفظ، وعلاقة الجودة في كليهما معاً هي المفضلة، وهذا يعني أنَ المعاني نفسها تتفاوت، وأنها ليست كما زعم الجاحظ مطروحة في الطريق. ويستشف من أمثلة ابن قتيبة أن المعنى عنده قد يعني الصورة الشعرية مثلما يعني الحكمة.

وإنَ قضية اللفظ والمعنى لم تتناول العمل الأدبي كله بحيث تتطور إلى ما نسميه **(الشكل والمضمون)** ولا هي استطاعت أن تقرب مما قد يسمى **(الصلة الداخلية)** بين هذين، ولعلها كانت ذات أثر بعيد في صرف النقد عن تبين وحدة الأثر الفني في مبناه الكلي، غير أنها رغم ذلك أسلم من الانحياز السافر إلى جانب اللفظ.

وإلى جانب محاولة اللفظ والمعنى وقف ابن قتيبة عند قسمة ثنائية في النظرية الشعرية، فقد كثر الحديث في عصره عن الطبع والتكلف، دون تحديد لهذين المصطلحين، فتناولها ابن قتيبة بالتفسير والتمثيل، وقد خفى على الدارسين المحدثين أن قلة (المصطلح النقدي) لدى ابن قتيبة جعلته يستعمل هذين اللفظين بمدلولات مختلفة:

فالتكلف حيث يكون وصفاً للشاعر مختلف عن التكلف حين يكون وصفاً للشعر.

إن العلاقة بين اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة ليست من الحيوية إلي درجة تجعل أمر هذه العلاقة ذات أثر في الشعر، فقد يوجد المعنى القوىُ في العبارة الجيدة، وقد يوجد اللفظ الجميل في ذلك ولا فائدة في المعنى ومما لاشك فيه أن ارتباط جودة الشعر بجودة اللفظ والمعنى معاً شيء طبيعي.

أما وجود المعاني الجميلة أو الحسنة في الأشكال القاصرة، فقد يوجد أيضاً، لكن ليس على أساس فني خالص، إنما على أساس أخلاقي أو علمي أو أي أساس آخر لا يخلص للفن وحده وإنَ للناس في ذلك مذاهب، فمنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته، ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ قبحه وخشونته، وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى.

حيث قال بعض العلماء: اللفظ أغلى من المعنى ثمناً وأعظم قيمة، وأعز مطلباً، فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السبك، وصحة التأليف، أما ترى لو أن رجلاً أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الإقدام بالأسد، وفي المضاء بالسيف، وفي العزم بالسيل، وفي الحسن

بالشمس؟ فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن الألفاظ الجيدة الجامعة للرقة، والجزالة، والعذوبة، والسهولة، والحلاوة لم يكن للمعنى قدر. (القيرواني، 1972، 126-127)

عبد القاهر الجرجاني (ت 417)

الجرجاني ليس من أنصار اللفظ وحده، ولا من أنصار المعنى، ولكنه من أنصار "**النظم**" لأن الصورة الأدبية عنده لا تتم وتحقق غايتها الجمالية إلا بجمال النظم.

ويقول: أعلم أن ليس النظم أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها.

ويقول عبد القاهر الجرجاني:

"وهل يقع في الذهن أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة، مستعملة وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون أحرف هذه أخف، وامتزاجها أحسن؟

وهل تجد أحد **يقول:** هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟"

وليس معنى ذلك أن الجرجاني ينكر الصياغة، وأثرها في رسم الصورة الأدبية، وإنما يرفض أن ترد أمر الإعجاز، وسر الإبداع، والخلود في الأدب العربي إلى الألفاظ وحدها، ولكنه يرى أن سر الجمال والخلود في الأساليب العربية راجع لجمال النظم..

وكتاباه "**دلائل الإعجاز**" و"**أسرار البلاغة**" أكبر دليل مادي ملموس على صحة هذه الدعوى وإبطال دعاوي المغرضين الذين يريدون النيل من اللغة العربية وآدابها.

ونعتقد أن عبد القاهر لم يقر من رجحوا المعنى على اللفظ، بل كان من أنصار الصياغة من حيث دلالة هذه الصياغة على جلاء الصورة الأدبية ولم يرض عبد القاهر عن رأي من وقفوا عند حدود المعنى في عمومه ليحكموا على جمال الموضوع أو قبحه مغفلين شأن الصياغة سواء لديه فهم من فضَل الكلام لشرف معناه إذا كان أدباً أو حكمة، أو كان غريباً، أو من فضَله من أجل معناه بعامة إذا كان قد راق هذا المعنى، ولو كانت صياغته رقيقة واهية في النسج، وهو في هذا يوافق الجاحظ في رأيه الذي أوردناه، تمام الموافقة.

إذ يقول عبد القاهر: "وأعلم أن الداء الدَوى، والذي أعى أمره في هذا الباب غلط من قدَم الشعر بمعناه، وأقلَ الاحتفال باللفظ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضَل من المعنى.. ويقول: ما في اللفظ لولا المعنى؟

وهل الكلام إلا بمعناه؟ فأنت تراه لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة وأدباً، واشتمل على تشبيه غريب، ومعنى نادر، وإن مال إلى اللفظ شيئاً، ورأى أن يعطيه بعض الفضيلة؛ لم يعرف غير الاستعارة ثم لا ينظر في حال تلك الاستعارة، أحسنت بمجرد كونها استعارة أم من أجل فرق ووجه أم للأمرين؟.." (الجرجاني، 170).

في هذا كله يحمل عبد القاهر على الجامدين الذين يلوكون عبارات يروجون بها لما يروقهم من معنى، ويغفلون شأن الصياغة في التقدير وإذا لجأوا إلى شيء من ذلك، فإنما "يُجزون استعارة أو ينبهون إلى تشبيه على حسب ما حفظوا من قواعد، وقد بين عبد القاهر خطرهم على البلاغة، على دعوى إعجاز القرآن" (نفسه، 170).

فيرى عبد القاهر أن إعجاز القرآن لا يتصور أن يكون في الألفاظ مفردة، إذ هي مادة اللغة عامة، كانت معروفة لدى العرب فلا يمكن أن تكون بها.

وإن الألفاظ المفردة لا يتصور أن يقع بينها تفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة، دون أن تدخل في تراكيب إلا في **قولهم**: هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون أحرف هذه أخف وامتزاجها أحسن. (الجرجاني، 43).

فلا جمال إذاً في اللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق، وإنما يكون ذلك لما بين معاني الألفاظ من الإتساق العجيب.(هلال، 1986، 270).

إذاً فأهمية الألفاظ في مواقعها من الجمل بوضعها الوسائل التي بها يؤدى المعنى، ولا أهمية لها في ذاتها، وتظهر أهمية الألفاظ في أداء المعاني، ويتجلى ذلك في تأليف الكلام، وهنا تظهر دُربه الصياغة، وما فيها من ألفاظ في جلائها للصورة.

"فالبلاغة والفصاحة، وسائر ما يجرى في طريقهما، أوصاف راجعة إلى المعاني، وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها أي في ذاتها دون تأليف" (الجرجاني، 176) .

يقصد عبد القاهر بالنظم صياغة ، ودلالتها على الصورة، وهذه الصياغة هي محور الفضيلة، والمزية في الكلام.

ولهذا عُني عبد القاهر بشرح دلالات الألفاظ واختلافها بإختلاف مواقعها في الجمل "**فيما سماه**" "**النظم**" الذي بناه على أساسين هما:

1- لا فصاحة، ولا بلاغة إلا بالنظم وتوخي معاني النحو.

2- إن النظم يتفاوت بما يشمل عليه من تشبيه رائع واستعارة رصينة مصيبة، وكناية لطيفة.

أما على المستوى النقدي فإن الانحياز إلى اللفظ قتلٌ للفكر الذي يعتقد الجرجاني أنه وراء عملية أدق من الوقوف عند ميزة لفظية دون أخرى.

أما على المستوى البلاغي فإن الجرجاني لم يستطع أن يتصور الفصاحة في اللفظ، وإنما هي تلك العملية الفكرية التي تصيغ ترتيباً من عدة ألفاظ، وقد يجد الجرجاني عذراً للقدماء الذين فخموا شأن اللفظ وعظموه، وتبعهم في ذلك من بعده حتى **قالوا:** المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ، وعذرهم في ذلك أن من وجهة أخرى نرى عبد القاهر قد خطأ المنحازين إلى جانب المعنى بشدة ولا تقل عن شدته في مخطئته من ذهبوا إلى إبراز مميزات اللفظة المفردة وظاهر الأمر دون تمعن كبير يكون في جانب من يذهب هذا المذهب، ولكن عند البحث عن الحقائق نجد أن جميع البلاغيين المتفقهين قد عابوا هذا المبحث، حتى **قال الجاحظ قولته المشهورة:** "**والمعاني مطروحة في الطريق..**".

أما ترى في هذا حطاً من قيمة المعنى الذي يجعل له الجرجاني المقام الأول؟!.

هنا ينفذ الجرجاني بفهم دقيق إلى سر مشكلة طال حولها الأخذ والرد فوجه رأي الجاحظ توجيها ملائماً لما نعتقد أن الجاحظ رمى إليه..

إن مصطلح (المعنى) كما استعمله الجاحظ ذو دلالة دقيقة، وهو في رأي الجرجاني إنما يتحدث عن "**الأدوات الأولية**".

وعليه فإن الناس الذين ظنوا **(أن المعنى)** في نظرية الجاحظ يشير إلى عدم التفاوت في العملية والفكرة القائمة وراء البناء الفني، وهم قوم مخطئون في تصورهم، فهم قد أساؤا فهم ما رمي إليه الجاحظ، لأنه لم يتجاوز بما يعنيه **(المادة الأولية)** التي تتولاها "**الرواية**" بالسياقة..

فخلطوا بذلك بين تلك المادة الضرورية المشاعة وبين الرواية الفكرية التي تؤسس وحدة كاملة من اللفظ والمعنى تأسيساً متفاوتاً في القدرة على التأثير، فأرجعوا الفضيلة إلى اللفظ وحده.

ولما أقروا هذا في نفوسهم حملوا كلام العلماء في كل ما نسبوا فيه الفضيلة إلي اللفظ على ظاهرة وأبوا أن ينظروا في الأوصاف التي اتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ.

إن عبد القاهر الجرجاني في نظرية **(النظم)** يحس أنه بتلك النظرية يخدم فكرة الإعجاز ، ويقلل من الانحياز إلى اللفظة المفردة ، ويمنح المعنى من داخل الصورة المركبة قيمة كبرى ، غير أن مصطلح **(المعنى)** لديه لم يبق كما كان عند الجاحظ، بل أصبح يعني **(الدلالة)** الكلية المستفادة من الوحدة لا **(المادة الأولية)** أو الحقائق الخارجية التي تحدث عنها الجاحظ، ولا ندري إلى أي حد استغل عبد القاهر كتاب الجاحظ في نظم القرآن لترسيخ نظريته، ولكنه يتجه إلى كتاب آخر للجاحظ هو: كتاب **(النبو)** فينقل عنه قوله: (ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، تبيَن لهم في نظامها ومخرجها من لفظها، وطابعها أنه عاجز عن مثلها..)

فالنظم هو سر الإبداع في الآداب العربية، وإنه أصيل مستنبط من القران الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والأدب العربي.

وإن القريحة العربية قادرة على الابتكار، والخلق، والإبداع.

فقد بدأ الجرجاني بطرق المسألة من الزاوية النفسية حين جعل سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ثم يعود عند حديثه عن الطبع إلى ذكر موقع اللفظ الرشيق في القلب، وعظم غنائه في تحسين الشعر وبذلك جعل اللفظ العذب الرشيق تحليلاً للطبع، وتجسيداً للشعر المطبوع.

ومما تقدم ندرك أهمية النظم في الأساليب العربية وقد توقف النقد العربي تقريباً – بعد عبد القاهر الجرجاني وانتهى إلى قواعد بلاغية جافة مشحونة بالمصطلحات الفلسفية، والقوانين المنطقية التي أفسدت الذوق، وأثره في الإحساس بمواطن الحسن والقبح في النص الأدبي، فإننا نتفاءل من العصر الحديث جديداً.

المبحث الثالث: أراء بعض النقاد المحدثين

استكمالاً، وتتميماً للفائدة في عرضنا لقضية:**(اللفظ والمعنى)** نشير في إيجاز إلى أراء النقاد المحدثين في هذه القضية، التي سميت **(بالشكل والمضمون)** أو **(الصورة والمضمون)** أو**(التعبير والشعور)**.

وأصبح يقصد بذلك كل عناصر التعبير، من ألفاظ، وعبارات، وصور، وقوالب موسيقية، ونحو ذلك وإنه يقصد بالمضمون: العناصر الفكرية، والشعورية، حيث تناول النقاد المحدثون هذه القضية عند أو بعد تأثر الأدب بالثقافات والاتجاهات الأوربية وإليكم أبرز آرائهم:

1- عباس محمود العقاد:

يقول العقاد: إن الأدب يقوم على أساس الجمال المعنوي، لا الشكلي، حيث يقول: (الجمال في الفن، والطبيعة، معنوي لا شكلي، وإن الأشكال لا قيمة لها إلا لمعنى تحركه أو توحي به أو تومي إليه..).

فالعقاد: يعنى بالمعنى والفكر ومدى قيمته الفنية.(الجربي وآخرون، 26) .

2- أحمد حسن الزيات:

يقول الزيات: إن العلاقة بين اللفظ والمعنى كالعلاقة بين الروح والجسد، لا يكون هذا بدون ذاك إذاً اللفظ والمعنى عنصران متلازمان في الأدب.. (نفسه، 26).

3- إبراهيم عبد القادر المازني :

وإبراهيم المازني يعني عناية كبيرة بالمضمون والقيمة الشعورية، وفي نفس الوقت إنه لا يهمل القيمة التعبيرية وإن للقيمة التعبيرية أثرها في بناء الصورة الأدبية. والمازني يرفض إذا كان الأدب مجرد ألفاظ وحروف مرصوفة، والزخرفة شكلية بديعة.. (نفسه، 27) .

4- أحمد الشائب:

يقول الشائب: إن سر الإبداع يرجع إلى الأساليب العربية المعتمدة على قيمة كل من اللفظ والمعنى معاً فلا حياة للفظ بدون معنى وبالعكس أيضاً.. (نفسه، 27) .

الخاتمة

لقد عالج النقد العربي مسألة اللفظ والمعنى، على أساس المقابلة بين كل منهما ولكنه أولى المسألة عناية كبيرة، حيث انقسم النقاد العرب فيها إلى طوائف: فمنهم من نظر إلى مقومات العمل الأدبي، فأرجعه إلى جانب المعنى، مغفلاً شأن اللفظ، وآخرون أرجعوها إلى اللفظ، ومنهم من ساوي بين اللفظ والمعنى، وأخيراً منهم من نظر إلى الألفاظ من جهة دلالتها على معاينة في نظم الكلام، والرأي الأخير أهم الآراء، وأكثرها أصالة.. (وهذا ما ذهب إليه الجرجاني) ونحن نؤيده.

ونقول: إن اللفظ والمعنى متلازمان، فالعملية الفكرية واحدة، وفيها تتجلى الصورة الأدبية عن طريق صياغتها، فإذا كانت العبرة بالألفاظ في مواقعها من الجمل، فليس ذلك لأنها المقصودة أولاً بالفكر، إذ لا يعقل أن يقصد إلاً إلى ترتيب المعاني في استقلال عن اللفظ، ثم يستأنف النظر في الجملة الدالة عليها، ولا أن يقصد إلى ترتيب الألفاظ وتواليها على نظام خاص في استقلال عن الفكر إذن فالأهمية للألفاظ في مواقعها من الجمل، بوصفها الوسائل التي بها يؤدى المعنى، ولا أهمية لها في ذاتها وهنا تظهر مزية الصياغة في قدرتها على جلاء الصورة.

قائمة والمصادر المراجع

1- البيان والتبين، الجاحظ، ط (1) تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة.
2- بنية العقل العربي، محمد عبد الجايري.
3- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ط (5)، جديدة دار الثقافة، بيروت.
4- الحيوان، للجاحظ، جـ (2)، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة.
5- دلائل الألفاظ، إبراهيم أنيس، ط (4) ،1980، مكتبة الأنجلوا مصرية.
6- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ط(2)، تحقيق: بمعرفة الناشر محمد رشيد رضا، دار العلم للتراث.
7- الصناعتين: للعسكري، تحقيق البجاوي، وأبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1952.
8- العمدة، ابن رشيق القيرواني، جـ (1)، ط(4)، دار الجيل، 1972.
9- لسان العرب، ابن منظور، جـ (5)، دار المعارف، مصر.
10- مختار القاموس، الطاهر الزاوي، الدار العربية للكتاب، 1983 – 1984.
11- معجم المصطلحات العربية واللغة والأدب، مجدي وهبه، كامل المهندس.
12- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني ط (3)، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة.
13- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، 1986.
14- النقد الأدبي، كتاب منهجي، رمضان الجربي وآخرون، راجعه: أحمد سالم الذئب وآخرون.

المخطوطات

- أولية الشعر (الجاحظ) مذكرة مخطوطة، أحمد سالم الذئب، جامعة السابع من أبريل، الزاوية، 2000.